الدراسة التمهيدية

أولًا: المؤلِّف والكتاب.

ثانيًا: مفهوم السياق والمعنى.

obeikandl.com

obeikandl.com

أولا: المؤلف والكتاب

١- ترجمة[١] الطاهر ابن[٢] عاشور

أ- اسمه ومولده:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، ابن عاشور، ولد بضاحية (المرسى) بتونس في جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ/ سبتمبر سنة ١٨٧٩م، بقصر

---

(1) آثرت الإيجاز الشديد في ترجمة ابن عاشور؛ إذ الإطالة لا طائل من ورائها سوى زيادة عدد صفحات البحث، وقد أقر هذا أستاذي الدكتور/ سعيد حسن بحيري؛ إذ سبقني الباحثون باستيفاء ترجمة الشيخ وانظر: على سبيل المثال:

أ- الاستعارة التمثيلية في تفسير التحرير والتنوير، رسالة دكتوراه، د/ علي العطار.

ب- الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسير التحرير والتنوير، رسالة دكتوراه، د/ هيا ثامر العلي، وهي أوفى التراجم إذ تمثل الترجمة الباب الأول، والفصل الأول من الباب الثاني من الرسالة.

ج- الجهود البلاغية لمحمد الطاهر ابن عاشور، رسالة دكتوراه، د/ فودة، وهي أدق التراجم وأحكمها وقد اعتمدت عليها كثيرًا في الاختصار.

د- تفسير ابن عاشور «التحرير والتنوير» دراسة لغوية، رسالة ماجستير إعداد/ عبد الوهاب عيسوي.

ولابن عاشور ترجمة فيما يلي:

أ- الإعلام للزركلي، (٦/ ١٧٤).

ب- جامع الزيتونة المَعْلَم ورجاله، محمد العزيز ابن عاشور، (ص١٢١، ١٢٢).

ج- أعلام القرن الرابع عشر الهجري، أ. أنور الجندي، المجلد الأول، (ص١١-١٨).

د- التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور.

هـ- تونس وجامع الزيتونة، محمد الخضر حسين.

و- التفسير بين الماضي والحاضر، د/ عبد الله شحاته، (ص٢١).

وهناك مصنف خاص بابن عاشور وهو «شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره»، د. بلقاسم الغالي، دار ابن حزم بيروت، ط/ ١٩٩٦م.

(2) توضع الألف للدلالة على أن الثاني ليس الأب المباشر للأول.

جَدِّه لأمه محمد العزيز بوعتور.

ب- تعليمه:

١- حفظ القرآن وعمره ست سنوات.

٢- التحق بجامع الزيتونة، سنة ١٨٩٢م.

٣- نال شهادة «التطويع» سنة ١٨٩٩م.

جـ- المناصب التي تولاها:

١- تولى خطة القضاء، سنة ١٣٣١هـ لمدة عشر سنوات.

٢- تولَّى منصب كبير أهل الشورى المالكية، سنة ١٣٤٥هـ.

٣- عُيِّن رئيسًا للنظر في شئون التعليم في جامع الزيتونة، سنة ١٣٥١هـ.

٤- صار عميدًا للجامعة الزيتونية، سنة ١٣٧٤هـ.

د- أخلاقه وصفاته:

عرف بالذكاء الوقاد، وسرعة الحفظ، واستقلال الشخصية منذ سنٍّ مبكرة، وجاهد الاحتلال الأجنبي، وعمل على صد الغزو الثقافي، كان صبورًا على المحن، عفَّ اللسان، كريمًا، محبًّا لأهل العلم، ولطلبته، ولمن كان أهلًا للمحبة، وكان في مناقشاته العلمية لا يجرح أحدًا، ولا يحط من قدره، ولم يمس شخصية أحد في خصوماته الفكرية.

هـ- عقيدته:

صرح ابن عاشور في أكثر من موضع بأنه أشعري المذهب[1] فيأخذ بمذهب الأشاعرة في تأويل الصفات ويخالف الأشاعرة كذلك في بعض المسائل[2].

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (٨/ ١٣٥) (ق٢)، (٩ / ١٠).

(2) انظر: السابق (٨/ ١٦٤) (ق٢).

و- شيوخه:

ذكر المترجمون لابن عاشور أسماء عديدة تتلمذ على يديها منها:

١- جدُّه لأمه الوزير محمد العزير بوعتور (١٢٤٠-١٣٢٥هـ) وهو أبرز شيوخ ابن عاشور.

٢- محمد ابن عاشور حُمْدة، جد ابن عاشور.

٣- الشيخ سالم بوحاجب.

٤- عُمر بن الشيخ.

٥- عمر بن عاشور.

٦-محمد النجار.

٧- الشيخ محمد عبده.

٨- صالح الشريف.

٩- محمد الطاهر الأول.

ز- تلاميذه:

١- عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠م) المجاهد الجزائري المشهور.

٢- ولده محمد الفاضل ابن عاشور (١٩٠٩-١٩٧٠م).

٣- محمد الحبيب ابن الخوجة.

٤- عبد الملك ابن عاشور.

ح- مؤلفاته[1]:

ترك ابن عاشور موروثًا ضخمًا في مختلف أنواع المعارف الشرعية واللغوية وغيرها، فهو، كما وصفوه «خَزَانَةُ عِلْمٍ تَتَنَقَّلُ يَجِدُ لَدَيْهِ كُلُّ طَالِبٍ بُغْيَتَهُ»، فخلَّفَ مؤلفاتٍ في التفسير، والحديث، والفقه وأصوله، والأدب والنقد والبلاغة،

---

(1) انظر: رسالة، د/ فودة (ص٨ إلى ص١١).

والسير والتراجم، والاجتماعيات، وهو بين مطبوع ومخطوط، وتجاوزت الأربعين مؤلفًا بالإضافة إلى مقالاته المتنوعة في مختلف المجلات، والجرائد، ورأس هذه المصنفات تفسير القرآن العظيم المسمى بـ «تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد» واختصره باسم «التحرير والتنوير»، وهو موضوع البحث وقد قضى الشيخ في تصنيفه قرابة الأربعين عامًا ميلاديًّا وتجاوزها هجريًّا.

ط- ثناء العلماء عليه:

منح الله ﷻ ابن عاشور مواهب عديدة ويَسَّر له سبل العلم منذ نعومة أظافره، وأمد في عمره حتى قارب المائة، فلا عجب فيمن توفرت له هذه الأسباب التي لا يملكها البشر أن يكون محل إعجاب مَنْ يقدر ذلك من البشر، فهذه مجموعة من أقوال بعض من عَاشَرُواْ ابن عاشور عن قرب وتَلَمَّسُواْ ما حباه الله به من نعم:

أ- «وللأستاذ فصاحة نطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم، وقوة النظر صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة[1]، وليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم»[2].

محمد الخضر حسين

ب- «رجل القرآن الكريم وإمام الثقافة الإسلامية المعاصرة... لا يمثل صورة من اللحم والدم، إنما يمثل تراثًا أدبيًّا علميًّا عقائديًّا أخلاقيًّا»[3].

الشيخ/ محمد الغزالي

---

(1) عيون البصائر، (ص٥٤٩).

(2) تونس وجامع الزيتونة، (ص١٢٦).

(3) نقلًا عن، د/ عبد الرحمن فودة، (ص١٨).

جـ- «علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر من ذخائره»[١].

محمد البشير الإبراهيمي

د- «رأيت فيه شيخًا مهيبًا يمثل امتدادًا للسلف الصالح في سَمْتِه، ودخل في عقده العاشر ولم تنل منه السنون شيئًا... وقد ازدحمت العلوم فيه»[٢].

محمد مسعود جبر

٥- «كان فريدًا مع تقدم السن في حضور الذهن واستحضار ما يسأل عنه من مسائل، وكأنه يقرأ في كتاب، كان خزانة علم تنتقل يجد لديه كل طالب بغيته».

د/ محمد الحبيب بلخوجة[٣].

ي- وفاته:

توفي ابن عاشور يوم الأحد ١٣ من رجب ١٣٩٣ هـ، والموافق ١٢ أغسطس، ١٩٧٣م، بعد حياة مليئة بالجهاد والكفاح، والعلم والتعليم، ودفن بمقبرة الزلاج[٤].

---

(1) الجهود البلاغية للطاهر ابن عاشور ، (ص١٩).

(2) شيخ الجامع الأعظم، (ص٦٣).

(3) شيخ الجامع الأعظم، (ص٦٤).

(4) تراجم المؤلفين التونسيين (٣/ ٣٠٦).

٢- كتاب التحرير والتنوير.

أعرض في حديثي عن التحرير والتنوير لأربع نقاط بإيجاز شديد، والاكتفاء بالإحالة إلى مواضع التفصيل في الدراسات التي سبقتني في تناول تفسير ابن عاشور وهي:

الأولى: أهميته. الثانية: قيمته.

الثالثة: مصادره. الرابعة: طريقة ابن عاشور في عرضه.

أ- أهمية الكتاب:

نستطيع أن نبرز أهمية التحرير والتنوير في النقاط الآتية:

أولًا: ثقل مؤلفه، فهو -كما سبق أن أشرت- من العلماء الثقات الذين شهد لهم أهل العلم بالفضل والثناء.

ثانيًا: تأخر تصنيفه زمنيًا إذ يُعد آخر الكتب المعتمدة عند أهل العلم كتفسير لكتاب الله. وعنصر الزمان أتاح لمصنفه الاطلاع على جهود سابقيه في مجال التفسير، وقَدْ أفاد من ذلك. وعليه فهو يفيد قارئه، وقد اختصر ابن عاشور وصف كتابه بقوله: «فيه أحسن ما في التفاسير، وأحسن ممَّا في التفاسير»[1].

ثالثًا: اهتمام مصنفه بالجوانب البلاغية، والنحوية، واللغوية، وذلك يعين طلاب العربية على فهم كتاب الله.

ب- قيمة الكتاب:

وهذه النقطة متعلقة بما قبلها علاقة تعاضُد فأهمية الكتاب تأتي من قيمته، وقيمة الكتاب تعبِّر عن أهميته، ونستطيع أن نبرز قيمته فيما يلي:

---

(1) التحرير والتنوير، (١/ ٧).

أولًا: مخالفة مصنفه للمفسرين واللغويين في كثير من المسائل، مع الاحتجاج لما يذهب إليه من آراء، مما يثري مجال البحث العلمي للموازنة بين ابن عاشور وغيره.

ثانيًا: تحرر صاحب التحرير والتنوير من المذهبية النحوية، وكونه غير مقلد لمدرسة بعينها جعله يتناول القضايا تناولًا حياديًّا أساسه التذوق والتعليل.

ثالثًا: موسوعية الكتاب وشموليته لكثير من قضايا التفسير، فهو تفسير أثري لغوي يدعو إلى إعمال الرأي فكما وصفه د/ رفيدة: «تفسير حافل قيمٌ واسع»[(١)].

رابعًا: الطريقة العلمية التي اتبعها ابن عاشور في تصنيفه، فبدأ بمقدمة ذَكَرَ فيها الغرض من تصنيفه للكتاب، ثم مَهَّد بذكر مقدمات عشر تساعد القارئ على قراءة التفسير، وفهم طريقة مصنفه وآرائه، وسار في تفسيره على طريقة واحدة ساعدت كل من تعرض لدراسة التفسير على إبراز ملامحها.

جـ- أهم مصادره:

تنوعت المصادر التي اعتمد عليها ابن عاشور وتعددت بحيث شملت جميع أنواع الفنون والعلوم التي تنتمي لعلم التفسير[(٢)] من كتب لعلوم القرآن، وبيان أوجه الإعجاز فيه، والمتشابهات والفروق، والناسخ والمنسوخ، وعلى رأس ذلك كتب التفسير السابقة له، وكذلك كتب علوم الأداة إلي توصل لفهم كتاب الله من كتب اللغة، والنحو، والبلاغة، والخط (رسم المصحف)، وكتب الأدب

---

(1) النحو وكتب التفسير، (٢/ ١٠٢٦).

(2) انظر: سرد المصادر في رسالة د/ هيا العلي، من (ص١٢١-١٤٢)، وفي منهج الإمام الطاهر في التفسير، د/ نبيل أحمد صقر من (ص١٦-٣٩)، ورسالة د/ فودة، من (ص٢٠-٤٣)، رسالة العيسوي، (ص١٩-٢٠).

وتاريخه التي اعتمد عليها في كثير من استشهاداته الشعرية والنثرية، والكتب المتصلة بعلوم الشريعة، ككتب الحديث، والفقه، وأصول الفقه، وكذا كتب العقيدة، وعلم الكلام، والتصوف، والفلسفة بالإضافة إلى كتب السيرة والمذاهب والتراجم والعلوم المتنوعة، وأخيرًا نقله عن الكتب المقدسة التوراة والإنجيل، وكذا ما سمعه من شيوخه ومعاصريه، وقد جرت عادة الدارسين للتحرير والتنوير على ذكر ما صرح به ابن عاشور نفسه في مقدمة تفسيره من مصادر اعتمد عليها ونقل عنها، وقد أَدَّى ذلك إلى تجاهلهم ذكر تفسير البحر المحيط لأبي حيان مع كثرة نقل ابن عاشور عنه عن بعض ما ذكروه[(١)]، وسأكتفي بالإشارة إلى المصادر التي تمس دراستنا. وهي ثلاثة أنواع:

أولًا: كتب التفاسير:

من أهم التفاسير التي أفاد منها ابن عاشور، ونصّ عليها في مقدمة تفسيره:

أ- الكشاف للزمخشري، وهو على رأس التفاسير التي اعتمدها ابن عاشور ونقل عنها، وقد أفردنا له مبحثًا في الفصل الأول من الباب الثالث للدراسة[(٢)].

ب- المحرر الوجيز لابن عطية[(٣)]، عبد الحق بن غالب الأندلسي توفي سنة ٥٤٢هـ.

جـ- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي[(٤)]، أبي عبد الله محمد الحسن بن الحسين التيمي، البكري المتوفى، سنة ٦٠٦ هـ.

---

(1) انظر: المبحث الثاني من الفصل الأول في الباب الثالث من الدراسة، (من ص٤٩٤ إلى ص ٥٠٦).

(2) انظر: (من ص٤٨٠ إلى ص ٤٩٣).

(3) انظر: التحرير والتنوير (٧ / ١٠٥)، (٨/ ١٩، ١٠٣) (ق١)، (٩/ ٢٢٩، ٢٦٥، ٢٩٨، ٣١٣، ٣٣٤) و(٩/ ١١٣).

(4) السابق، (٢/ ٢٨٦)، (٢/ ٢٩٨)، (٢/ ٣٠٠)، (٢/ ٣٣٧)، (٩/ ٢١٠).

هـ- تفسير القرطبي[١]، محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجيّ الأندلسيّ المتوفَّى سنة ٦٧٣هـ.

د- تفسير البيضاوي[٢]، عبد الله بن عمر الشيرازي، المتوفى، سنة ٦٨٥هـ.

و- ما كتبه القطب[٣] (قطب الدين الشيرازي محمود بن مسعود الفارسي) المتوفَّى سنة ٧١٠هـ، والقزويني[٤] (محمد بن عبد الرحمن المعروف بخطيب دمشق) المتوفَّى سنة ٧٣٩ هـ، والطيبي[٥] (الحسين بن محمد بن عبد الله) المتوفَّى سنة ٧٤٣ هـ، والتفتازاني[٦] (مسعود بن عمر ابن عبد الله) المتوفَّى سنة ٣٩٣هـ، على الكشاف.

ز- ما كتبه الخفاجي[٧] (أحمد بن محمد بن عمر المصري المتوفَّى سنة ١٠٦٩هـ) على تفسير البيضاوي.

ح- تفسير روح المعاني للشهاب الألوسي المتوفَّى سنة ١٢٧٠ هـ، وقد أفردناه بمبحث في الدراسة.

ط- الموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي[٨] المتوفَّى سنة ٨٠٣هـ.

ي - تفسير أبي السعود[٩] محمد بن مصطفى العماوي المتوفَّى سنة ٨٩٨ هـ.

---

(1) انظر: السابق، (٢/ ٢٨٦)، (٩/ ٢١٥، ٢١٩، ٢٤٠، ٢٦٢، ٢٩٥، ٣٤٥).

(2) انظر: السابق، (٩/ ٤١، ٢١٠).

(3) انظر: السابق، (٩/ ٢٢٠)، (١٨/ ٣٢).

(4) انظر: السابق، (١٨/ ١١٦)، (١٩/ ١١٤).

(5) انظر: السابق، (٢/ ٢٩٩)، (٢/ ٣٢٠).

(6) انظر: السابق، (٢/ ٢٩٠، ٢٩١)، (٢/ ٣٢٠).

(7) انظر: التحرير والتنوير، (٨/ ٧٠) (ق٢)، (٩/ ٢٣).

(8) انظر: السابق، (٢/ ٣١١)، (٨/ ٦٩، ٧٠) (ق٢)، (٩/ ٨٠).

(9) انظر: السابق، (٨/ ٧٠) (ق٢).

هذا ما نص عليه ابن عاشور في مقدمة تفسيره وأما ما نقل عنه ولم يذكره في المقدمة فأبرزها.

أ- تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي[١] المتوفَّى سنة ٧٤٥هـ.

ب- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري[٢] محمد بن جرير المتوفَّى سنة ٣١٠ هـ.

ج- الكشف والبيان في تفسير القرآن للنيسابوري أحمد بن إبراهيم الثعلبي المتوفى، سنة ٧٢٤هـ.

د- معالم التنزيل للبغوي[٣] الحسين بن مسعود المتوفى، سنة ٥١٠ هـ.

هـ- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير[٤] المتوفَّى سنة ٧٧٤هـ.

ثانيًا: كتب البلاغة:

المصادر البلاغية في التحرير والتنوير تكاد تنحصر في مؤلفات عبد القاهر الجرجاني والرازي والسكاكي والقزويني والتفتازاني والطيبي والإسكافي مع إلمامات من هنا أو هناك[٥]، وأهم هذه المصنفات.

أ- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني[٦] المتوفَّى سنة ٤٧١هـ، وهو على رأس الكتب التي استوعبها ابن عاشور وتأثر بها.

---

(1) انظر: السابق، (١/ ٥٠٢، ٧٤٥)، (٢٨/ ٣٥٧)، (٢٩/ ٧٤)، وقد أفردت لها مبحثًا في الفصل الأول من الباب الثالث.

(2) انظر: التحرير والتنوير، (٢/ ٣٠٠، ٣٢٤)، (٨/ ١٩، ١٠٣) (ق١)، (٨/ ١٤٢) (ق٢).

(3) انظر: السابق، (٧/ ١٠٥)، (٩/ ٢٠٧).

(4) انظر: السابق، (٩/ ٢١١، ٢١٥).

(5) د/ عبد الرحمن فودة «الجهود البلاغية»، (ص٢٨).

(6) انظر: السابق، (٨/ ١١٠) (ق١)، (٨/ ١٧٢) (ق٢)، (٩/ ٢١٩).

ب- مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي[١] يوسف بن محمد المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ.

ج- تلخيص المفتاح للخطيب القزويني[٢].

د- غرة التنزيل ودرة التأويل المنسوب لأبي عبد الله. محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي المتوفَّى سنة ٤٢٠ هـ.

هـ- ما سبق أن أشير إليه في كتب التفسير من تعليقات القطب، والقزويني، والطيبي، والتفتازاني على الكشاف، بل والكشاف نفسه؛ فمصنفه شيخ البلاغيين، كما أطلق عليه ابن عاشور.

ثالثًا: كتب اللغة:

اهتم ابن عاشور اهتمامًا بالغًا ببيان معاني المفردات، والوقوف على دقائق الفروق بين الكلمات، وقد اعتمد على مصادر عديدة ساعدته على ذلك؛ وأهمها:

أ- كتب المعاجم وقد ذكر منها:

١- معجم تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفَّى سنة ٣٧٠ هـ.

٢- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس المتوفَّى سنة ٣٩٠ هـ.

٣- الصحاح، لأبي نصر إسماعيل الجوهري المتوفَّى سنة ٣٩٨ هـ.

٤- المخصص، لابن سيده[٣] علي بن إسماعيل المتوفَّى سنة ٤٥٨ هـ.

٥- أساس البلاغة، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفَّى سنة ٥٣٨هـ.

---

(1) انظر: السابق، (٩/ ٦٣، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٩٣، ٢٩٥).

(2) انظر: التحرير والتنوير، (١٨/ ١١٦)، (٩/ ٢٢٠).

(3) انظر: السابق، (٨/ ٢٤٢) (ق٢).

٦- لسان العرب[١]، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري المتوفَّى سنة ٧١١ هـ.

٧- القاموس المحيط، لأبي الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفَّى سنة ٨١٧ هـ.

٨- تاج العروس، لأبي الفيض السيد محمد مرتضى الزبيدي المتوفَّى سنة ١٢٠٥هـ.

ب- كتب الغريب وأهمها:

١- تفسير غريب القرآن، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفَّى سنة ٢٧٦هـ.

٢- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الموفى سنة ٢٨٧هـ.

٣- مفردات غريب القرآن، للراغب الأصبهاني[٢] المتوفَّى سنة ٥٠٢هـ.

ج- كتب أخرى ومنها:

١- مجالس ثعلب، لأبي العباس أحمد بن يحيى[٣] المتوفَّى سنة٢١٩هـ.

٢- الأمالي، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي[٤] المتوفَّى سنة ٣٥٦هـ.

٣- المقامات، لأبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري[٥] المتوفَّى سنة ٥١٦هـ.

٤- تبصرة المتذكر، للكواشي أحمد بن يوسف المتوفَّى سنة ٦٨٠هـ.

٥- التعريفات، لعلي بن محمد الشريف الجرجاني المتوفَّى سنة ٧١٦هـ.

---

(1) انظر: السابق، (٨/ ٢٤٣) (ق٢).

(2) انظر: التحرير والتنوير (٨/ ٢٤٢) (ق٢)، (٩/ ٢٢٩، ٢٩٦).

(3) انظر: السابق، (٩/ ٢٢٠).

(4) انظر: السابق، (٢/ ٣٤٥).

(5) انظر: السابق، (٩/ ٢٣٢).

رابعًا: كتب النحو:

نقل ابن عاشور عن أئمة النحو العربي في مراحله المختلفة، مِمَّا حدا بدارسيه أن يتجهوا إلى ذكر الأعلام لا المصادر في هذه النقطة[١].

وقد ذكر ابن عاشور في تفسيره كثيرًا من المصادر النحوية التي اعتمد عليها، وإن كان في بعضها ينقل بواسطة، كنقله كلام ابن جنى والفارسي من كتب ابن هشام[٢].

ومما أشار إليه ونص على الأخذ عنه.

١- الكتاب، لسيبويه[٣] عمرو بن بشر بن قنبر المتوفَّى سنة ١٨٠ هـ.

٢- المقتضب، للمبرد[٤] محمد بن يزيد الأزدي المتوفَّى سنة ٢٤٧هـ.

٣- كتب إعراب القرآن وبيان معانيه، للفراء[٥]، والأخفش الأوسط[٦]، والزجاج[٧]، والنحاس[٨]، ومكي القيسي، وابن الأنباري[٩]، والعكبري[١٠].

---

(1) انظر: منهج ابن عاشور د/ نبيل صقر (ص٢٣، ٢٥)، رسالة د/ هَيَا (ص١٣٩، ١٤٠). وذكر العيسوي أربعة كتب فقط انظر: (ص٢٠)، من رسالته.

(2) انظر: رسالة د/ هيا من (ص٣٨٦ إلى ص٣٩٤)، ومن (ص٤٠٢ إلى ص٤١٠)، ومنهج ابن عاشور د/ نبيل صقر (ص١٦١ إلى ص١٩٠). انظر: تفاصيل ذلك في الباب الثانى (ص ٢١٠).

(3) انظر: التحرير والتنوير، (٧/ ١٩٢)، (٩/ ٢١٩)، (٦/ ٢٦٩).

(4) انظر: السابق، (٢/ ١٦١)، (٢٧/ ١٢٨).

(5) انظر: التحرير والتنوير ، (٨/ ١٤٨، ١٧٧) (ق٢) ، (٩/ ١٩٨).

(6) انظر: السابق ، (٢٧/ ٤٣٠).

(7) انظر: السابق، (٢/ ٢٧٨)، (٨/ ١٥٧) (ق٢)، (٩/ ٢٣٤، ٢٥٣)، (١٩/ ١٩٨).

(8) انظر: السابق، (٩/ ٢٨٨).

(9) انظر: السابق، (١٩/ ١٩٨).

(10) انظر: السابق، (١/ ٥١٩)، (٨/ ٢٤٣) (ق٢).

٤- المُفَصَّل[١]، لجار الله الزمخشري.

٥- شروح المفصَّل، وذكر منها:

أ- شرح المُفَصَّل، لابن يعيش[٢] يعيش بن علي المتوفَّى سنة ٦٤٣ هـ.

ب- الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب[٣] عثمان بن عمر المتوفَّى سنة ٦٤٦هـ.

٦- الكافية لابن الحاجب[٤]، وشرحها للرضي[٥] محمد بن الحسن الإستراباذي المتوفَّى سنة ٦٨٦ هـ.

٧- التسهيل[٦]، وشرحه لابن مالك الأندلسي[٧] محمد بن عبد الله المتوفَّى سنة ٦٧٢ هـ.

٨- شرح الكافية الشافية[٨]، لابن مالك.

٩- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب[٩]، لابن هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري المتوفَّى سنة ٧٦١ هـ، وهو على رأس الكتب التي اعتمد عليها ابن عاشور وأكثر من النقل عنها مصرحًا تارة وناسيًا تارة أخرى.

---

(1) انظر: السابق، (٨/ ١٨٨) (ق٢)، (٧/ ١٠٩).

(2) انظر: السابق، (٧/ ١١٠).

(3) انظر: السابق، (٨/ ٢٢) (ق٢).

(4) انظر: السابق، (٢/ ٢٩١).

(5) انظر: السابق، (٢/ ٢٩٠، ٣١٠)، (١٨/ ٣٢، ١٣٤)، (١٩/ ١١٤)، (٢٧/ ١٧٨).

(6) انظر: السابق، (٢/ ٣٥٨).

(7) انظر: السابق، (١/ ٥٥٩)، (٢/ ٢٨٩، ٢٥٨)، (٩/ ٤١).

(8) انظر: السابق، (٩/ ٤١).

(9) انظر: السابق، (٢/ ٢٧٨، ٣٥٨)، (٩/ ٤١، ٩٠، ٣١٨)، (١٢/ ١٢٠)، (١٩/ ٩٥)، (١٨/ ٧٣).

١٠- شروح مغني اللبيب، والحواشي التي كتبت عليه[١].

١١- الأشباه والنظائر، للسيوطي جلال الدين بن عبد الرحمن المتوفَّى سنة ٩١١هـ.

رابعًا: طريقة ابن عاشور في عرضه:

تناول الدارسون قبلي هذه النقطة، وكانوا ما بين مسهب وموجز[٢]، بل اهتموا ببيان طريقته في عرض اللغة وما يتعلق بمسائل النحو والإعراب[٣]، ولذا سأكتفي بذكر أهم النقاط التي تميز طريقته في عرض أوجه الإعراب[٤] وهي:

أولًا: تقديمه المعنى على قواعد الإعراب.

ثانيًا: كثيرًا ما يكتفى بذكر ما يرجح لديه ولا يعدد أوجه الإعراب.

ثالثًا: كثيرًا ما يكون انطلاقه من توجيه الزمخشري في إعراب الآية.

رابعًا: الإتيان بوجه جديد لم يسبق إليه في الإعراب.

خامسًا: عرض بعض الأوجه وتضعيفها.

سادسًا: نسبة الوجه الإعرابي إلى أصحابه غالبًا.

سابعًا: الاستشهاد بمتشابه النظم، وبالشعر العربي على الوجه المختار.

---

(1) انظر: السابق، (٢/ ٢٧٨)، (١٩/ ١١٣).

(2) انظر: ابن عاشور ومنهجه في التفسير د/ هيا العلي (من ص٣٢٤ إلى ص٣٣٤)، ومنهج ابن عاشور في التفسير، د/ نبيل صقر (من ص٤٣ إلى ص٥٢)، وتفسير ابن عاشور دراسة لغوية عبد الوهاب عيسوي من (ص١١ إلى ١٨).

(3) انظر: رسالة د/ هيا من (ص٣٨٦ إلى ص٣٩٤)، ومن (ص٤٠٢ إلى ص٤١٠)، ومنهج ابن عاشور د/ نبيل صقر (ص١٦١ إلى ص١٩٠).

(4) هناك تفصيل لذلك في المبحث السادس من الفصل الأول في الباب الأول من (ص١٧٨ إلى ص١٨٨).

ثامنًا: لم يلتزم إعرابًا مفصَّلًا أو شاملًا، بل كثيرًا ما يمر على مواضع دون تَعَرُّضٍ لها؛ إذ غرضه التفسير لا الإعراب.

تاسعًا: كثيرًا ما يعتمد في توجيهه على رأيه الشخصي، وفهمه، ودرايته بالنحو العربي.

عاشرًا: الإحالة على المتشابهات.

وَلَنَا مع ابن عاشور وقفات عديدة، ستظهر من خلال العرض والتحليل في البابين الأول والثاني من الدراسة، والنقد والتقويم في الباب الثالث.

obeikandl.com

ثانيًا: مفهوم السياق والمعنى

مدخل:

السياق لغةً واصطلاحًا:

أ- السياق في اللغة:

السياق في اللغة له معان عديدة وأصل السياق: المَهْر ويقال: ساق إلى المرأة مهرها: أَرْسَلَه[١]، ولعل أقرب المعاني لما نحن بصدده معنى المتابعة والمقاودة.

قال ابن منظور: وقد انساقت وتساوقت الإبل تَسَاوُقًا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوق، أي ما تتابع، والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضًا[٢].

وقد أشار الزمخشري إلى الربط بين سوق الإبل وسوق الحديث مَجَازًا بقوله: ومن المجاز هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه أي سَردِه[٣].

والسرد هو التوالي والتتابع قال الزمخشري: «سرد الحديث والقراءة جاء بهما على ولاءٍ»[٤].

واعتمد مجمع اللغة العربية هذا المعنى ففي المعجم الوسيط: ساق الحديث، سرده وسلسله، وساوقه: تابعه وسايراه وجاره، وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه[٥].

---

(1) القاموس المحيط للفيروز آبادي، مادة (س. و. ق) .

(2) لسان العرب لابن منظور المصري، مادة (س. و. ق) .

(3) أساس البلاغة مادة (س. و. ق) .

(4) السابق، مادة(س. ر. د) ، جار الله الزمخشري.

(5) انظر: المعجم الوسيط مادة (س. و. ق) .

وقد عرفته بعض المعاجم الحديثة بأنه «بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه»[١].

ب- السياق في الاصطلاح:

ورد لفظ السياق في التراث العربي واستعمل استعمالات مختلفة إلا أنه لم يوضع له تعريفٌ معَيَّن، ولم يجر له في كتب الاصطلاح ذكر[٢].

وقد انتهى أحد الباحثين[٣] إلى أن مصطلح السياق في التراث العربي يدور حول ثلاث نقاط:

الأولى: أن السياق هو الغرض: أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام.

الثانية: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها.

الثالثة: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر أو التحليل.

ج- المعنى:

قال الزمخشري: «وعنيت بكلامي كذا أي أردته وقصدته»[٤].

ومعنى الكلام ومعنيُّه ومعنَاتُه ومعنيَّتُه: واحد[٥].

---

(1) معجم المصطلحات اللغوية، رمزي البعلبكي، (ص١١٩).

(2) انظر: دلالة السياق، د/ رَدة الله بن رَدة بن ضيف الله الطلحي، مطبوعات جامعة أم القرى (سلسلة الرسائل العلمية) ١٤٢٤هـ، (ص٤١).

(3) دلالة السياق، من (ص٤١ إلى ص٥١).

(4) أساس البلاغة، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م.

(5) القاموس المحيط للفيروز آبادي، مادة (ع. ن. ي).

العلاقة بين السياق والمعنى:

هناك علاقة وثيقة بين السياق والمعنى بل هما مترادفان عند من يرى أن السياق هو مقصود المتكلم من إيراد الكلام، والصواب أن السياق هو القرائن التي تعين على فهم المعنى وبيانه. وسيدور حديثنا حول نقاط ثلاث:

الأولى: السياق والمعنى عند اللغويين في التراث القديم.

الثانية: السياق والمعنى في الدراسات اللغوية الحديثة.

الثالثة: مفهوم السياق والمعنى في الدراسة.

أ- السياق والمعنى عند اللغويين في التراث القديم:

لا ينكر أن دلالة السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة، تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها[1].

والنحو العربي يهتم بالمعنى منذ نشأته الأولى، وكتاب سيبويه وهو أول أثر نحوي يمثل جهود المرحلة الأولى يمثل مظهرًا من مظاهر اهتمام اللغويين بالسياق لبيان مجرى الكلام، فاللغة عند سيبويه «لم تكن تنفك عن ملابسات، استعمالها، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي، كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي»[2].

ودليل ذلك أن الجملة الواحدة قد تكون صوابًا مرة وخطأ مرة أخرى؛ لاختلاف السياق الذي قيلت فيه، وبتعبير سيبويه يكون الكلام الواحد محالًا

---

(1) النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د/ محمد حماسة عبد اللطيف، ط، مطبعة المدينة، مصر، سنة ١٩٨٣م، (ص١١٣).

(2) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د/ نهاد الموسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت سنة ١٩٨٠م، (ص٩٢).

وحسنًا بحسب ما يرد فيه يقول: «وذلك أن رجلًا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبدُ الله منطلقًا، وهو زيدٌ منطلقًا كان محالًا؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن هو وأنا علامتان للمضمر. وإنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني. إلا أن رجلًا لو كان خلف حائط، أو في موضع تجهله فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقًا في حاجتك، كان حسنًا»[(١)].

فقرينة المقام سوغت قبول الكلام واستحسانه وإلاَّ كان مرفوضًا محالًا[(٢)]، وكذلك يهتم سيبويه بإبراز دور القرينة اللفظية في إظهار المعنى الذي يريده المتكلم، وعبارته في بيان الأصل الذي يجري عليه التقديم والتأخير مشهورة، فقد قال: «كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم»[(٣)].

وأشار المبرِّد أيضًا إلى أثر السياق الخارجي في قبول الكلام بقوله: «إنَّ حد الأسماء الظاهرة أن تخبر بها واحدًا عن واحد غائب، والمخبر عنه غيرها فتقول: قال زيدٌ، فزيدٌ غيرك وغير المخاطب، ولا تقول: قال زيدٌ وأنت تعنيه، أعني المخاطب»[(٤)].

---

(1) الكتاب لسيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية بيروت، سنة ١٩٨٨م. (٢/ ٨٠-٨١).

(2) وكذلك تقسيماته للكلام بين الاستقامة والإحالة وربطها بقضية التوافق بين التركيب اللغوي والواقع الخارجي، السابق، (ص٢٤).

(3) السابق، (١/ ٣٤).

(4) المقتضب صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة. ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سنة ١٩٩٤م.

وقد اهتم ابن جني بالقرائن الحالية وأثرها في فهم المعنى بل عدّها أقوى من النقل بالسماع دون المشاهدة فحال المتكلم وحركة يديه ووجهه وهيئته كل ذلك يؤدي لبيان المراد، ومن ذلك قوله معقبًا على بيت نُعَيْم بن الحارث بن يزيد السعدي[١]

تَقُولُ - وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِهَا أَبَعْلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ

فلو قال حاكيًا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس- من غير صك الوجه - لأعلمنا بذلك أنها متعجبة منكرة، لكنه لما حُكِي الحال فقال: وصكت وجهها علم بذلك قوة إنكارها، وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل: ليس المُخْبَر كالمُعَاين»[٢].

ويؤكد ذلك بقوله: «فلو كان استماع الأذن مغنيًا عن مقابلة العين مجزئًا عنه لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه، وعلى ذلك قالوا: رُبَّ إشارة أبلغ من عبارة، وقال لي بعض مشايخنا -رحمهم الله- أنا لا أحسن أنا أكلم إنسانًا في الظلمة»[٣].

ويشير إلى أن ما يدل عليه الحال يغني عن المقال فيصير في حكم الملفوظ به يقول: «من ذلك أن ترى رجلًا قد سدد سهمًا نحو الغرض، ثم أرسله فتسمع صوتًا فتقول: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، فـ (أصاب) الآن في حكم

---

(1) البيت من الطويل، وفي رواية: تقول ودقت صدرها. انظر: المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية. د/ إميل يعقوب (١/ ٤٦٥).

(2) الخصائص صنعة أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م، (١/ ٢٤٦-٢٤٧).

(3) الخصائص، (١/ ٢٤٧).

الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال نابت مناب اللفظ»[١].

ولابن جني نصوص كثيرة في هذا المجال وحسبنا ما ذكرناه[٢]، وأشار ابن يعيش إلى هذه العلاقة بين القرينة وبيان المعنى بقوله: «وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق»، «واعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلا بد منهما إلا أنه قد توجد قرينة لفظية، أو حالية تغني عن النطق بأحدهما فيحذف لدلالتها عليه؛ لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ جاز ألا تأتي به، ويكون مرادًا حكمًا وتقديرًا»[٣].

ويظهر اهتمام النحاة بالسياق أو القرائن جليًّا في كثير من أبواب النحو وقد أشار إلى ذلك د/ حماسة فعدد كثيرا من الأبواب مع التمثيل والبيان[٤]، ويأتي في مقدمة ذلك مسائل الرتبة والحذف[٥] فيجب الإبقاء على أصل الرتبة عند زوال القرينة، ويجوز تغييرها عند وجود القرينة، ولذا فهم يفرقون بين «ضرب موسى عيسى» و«أكل الكمثرى عيسى»، وقد اهتموا ببيان المواضع التي يطرد فيها الحذف بناء على استقراء المعاني.

---

(1) السابق، (١/ ٢٨٥).

(2) انظر: دلالة السياق، رَدَّة، من (ص٧٣ إلى ٧٦)، ومن (ص٥٧٢ إلى ص٥٧٦).

(3) شرح المفصل، لمُوَفَّق الدين يعيش بن علي، القاهرة، سنة ١٩٣٩م، (١/ ٩٤).

(4) انظر: النحو والدلالة، من (ص١٢٧ إلى ص١٦١).

(5) سيأتي بيان ذلك بالتفصيل في الفصلين الثاني والثالث من الباب الأول.

وقد ظهر التواصل بين النحو والمعنى في جوانب متعددة أهمها[١]:

١- الاستدلال بالمعنى على وجوه الإعراب وكذا اختيار وجه دون غيره.

٢- الكشف عن دلالات الأوضاع النحوية.

٣- تعليل الأحكام النحوية.

وأخيرًا أشير إلى أن السياق كان من العوامل التي اعتمد عليها النحاة في تخريج شواهدهم، وذلك كثير، إلا أني أكتفي بذكر ثلاثة شواهد:

الأول: في مجال الرتبة:

استشهد النحاة على وجوب أن يكون المقدم هو الخبر، والمؤخر هو المبتدأ، بقرينة حالية ثابتة في ذهن المستمع، وهي أن الأحفاد يتبعون الأبناء وليس العكس وذلك في قول الشاعر:

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجَالِ الأباعِدِ[٢]

الثاني: في مجال الحذف:

استشهد النحاة على جواز حذف مفعولي ظن وأخواتها بقرينة لفظية من داخل النص، وهي ذكر المفعولين قبيلُ، وذلك في قول الشاعر:

بِأَيِّ كتابٍ أَمْ بِأَيَّةِ سُنَّةٍ تَرَى حُبَّهم عارًا عليَّ وَتَحْسَبُ[٣]

أي تحسب حبهم عارًا.

---

(1) انظر: من نحو المباني إلى نحو المعاني، بحث في الجملة وأركانها، د/ محمد طاهر الحمصي، دار سعد الدين، دمشق، سنة ٢٠٠٣م، من (ص١٠ إلى ص٢٣).

(2) البيت من الطويل، انظر: شرح التسهيل، لابن مالك، (٢/ ٣٤)، والمعجم المفصل، (١/ ٢٦٠).

(3) البيت من الطويل، انظر: المعجم المفصل (١/ ٦٧).

الثالث: في مجال الشرط:

يشترط النحاة دخول اللام على خبر «إنْ» المخففة من الثقيلة في حال إهمالها فارقة بينها وبين «إنّ» النافية. وذهبوا إلى عدم اشتراط ذلك إذا كانت في موضع لا يصلح للنفي، وكون الكلام يصلح للنفي أم لا يحدده السياق بقرائنه، ولذا لم تدخل على الخبر في قوله الطِّرِمَّاح:

أنا ابنُ أباة الضيْم من آلِ مالكٍ وإن مالكٌ كانت كرامَ المَعَادِنِ[1]

فالسياق يمنع كون «إن» نافية إذ ذلك ينافي المدح في الشطر الأول.

رأيٌ ورَدُّهُ:

يرى أحد الباحثين أن غير النحاة ممن تعاملوا مع النصوص كالبلاغيين والمفسرين والأصوليين كانوا أكثر وعيًا وتقديرًا للسياق ولأهميته في تحليل النص؛ لأن السياق ليس مطلبًا نحويًّا ملحًّا في ظل فكرة العامل والمعمول والأثر، وأكد أن ذلك ليس عيبًا في النحو العربي[2].

وأرى أن ذلك حكم يفتقد الدقة؛ لأنه عمَّمَه على النحو العربي، وذلك مردود بما أورده هو نفسه من نماذج عديدة لاهتمام النحاة بالسياق بشقيه النص والموقف، ولو خصص ذلك بالنحو التعليمي، وقال ما قاله د/ حماسة «وكل سياق لا بد أن يختلف عن الآخر في زمانه ومكانه وملابساته المتعددة، والنحو التعليمي - بطبيعة الحال-لا يعني بكل هذه الملابسات وما يكتنف السياق، بل يعنيه توضيح جانب واحد من جوانب المعنى، وهو المعنى النحوي المجرد أي علاقة الفاعلية والمفعولية وغيرهما، وإن كان يجد نفسه في بعض الأحيان مضطرًا للرجوع إلى السياق وملابسات الكلام من أجل توضيح المعنى

---

(1) انظر: السابق، (٢/ ٧٣).

(2) دلالة السياق، د/ ردة الله، (ص٧٨).

النحوي نفسه»[١]. لكان الحكم دقيقًا إذ هناك فرق بين النحو التعليمي والنحو العربي؛ إذ الأخير لفظ شامل يخرج بنا وحدود التقعيد والوجوب والجواز إلى آفاق التعامل مع النصوص انطلاقًا من نظرية النحو العالي الذي يهتم بتحليل النصوص استنادًا إلى السياق وملابساته، بالإضافة إلى أن كثيرًا من أئمة البلاغة والتفسير نحاة، وعلى رأس هؤلاء الزمخشري، ومن قبله الجرجاني شيخ البلاغيين، ومن بعده أبو حيان صاحب تفسير البحر المحيط، بل إن النحاة في تعريفهم الكلام اعتمدوا على قرائن السياق الحالية والمقالية فهو: «ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظًا، أو خطًا، (سياق النص) أو إشارة، أو ما نطق به لسان الحال»[٢] (سياق الموقف).

ثانيًا: السياق والمعنى في الدراسات اللغوية الحديثة:

أ- الإسهامات الغربية في كشف العلاقة بين السياق والمعنى.

شغلت نظرية السياق المفكرين اللغويين في الغرب وتوالت جهودهم في إبراز العلاقة بين معنى النص والسياق الوارد فيه حتى تبلورت الجهود فيما يسمى بنظرية السياق عند فيرث التي تعد الإسهام الحقيقي للغويين الإنجليز في مجال الدراسات اللغوية ، والدرس الدلالي على وجه الخصوص ، ولذا سأجعل نظرية فيرث مرحلة وسطى في جهود العلماء الغربيين حول قضية السياق والمعنى. هذه المرحلة سبقتها مرحلة التمهيد ، ولحقتها مرحلة التأثر والتقعيد[٣].

---

(1) النحو والدلالة، (ص١١٤).

(2) شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لابن هشام الأنصاري، (ص٢٩).

(3) انظر: دلالة السياق، د/ ردة، (ص ١٦٣).

أولًا: السياق قبل فيرث.

بدأت جهود علماء الغرب منذ عام ١٩١٦م حين ظهر كتاب (دروس في الألسنية العامة) لرائد الدراسات اللغوية الحديثة دي سوسير[١] الذي عرَّف اللغة بأنها «نظام من الدلائل يعبِّر عمَّا للإنسان من أفكار»[٢] والذي اهتم بالكشف عن نظام اللغة ، والعلاقات اللغوية ، وتوصل إلى أن العلاقات تدور في نطاق دائرتين لازمتين معًا ، دائرة العلاقات السياقية ، وهي علامة حضورية تمثل عنصرًا في سياق النص ، يقول: «إن مفهوم السياق لا ينطبق على كلمات فرادى فحسب ، وإنما على مجموعات من الكلمات والوحدات المركبة مهما بلغت من الطول والتنوع كالكلمات والمشتقات ، وأجزاء الجمل ، والجمل الكاملة».[٣]

ودائرة العلاقات الإيحائية التي تجمع بين عدد من العناصر بصورة غيابية (لا وجود لها إلا في الذهن) ضمن سلسلة وهمية موجودة بالقوة مجالها الذاكرة»[٤]؛ فبمجموع هاتين العلاقتين السياقية والإيحائية نستطيع فهم النص ، وقد أوجز دي سوسير فكرته عن السياق بقوله: «والكلمة إذا وقعت في سياق ما ، لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق ، ولما هو لاحق بها أو لكليهما معًا».[٥]

وبعد دي سوسير برزت جهود الفرنسي جورج فندريس ١٩٢٠م الذي أولى السياق أهمية كبرى في حديثه عن المشترك في اللغة وأوضح أن السياق يمنع تعدد المعاني بقوله: «إننا حين نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في

---

(1) نسيج النص، الأزهر الزناد، (ص ١٤)، ودلالة السياق، ردة الطلحي، (ص ١٦٦).

(2) دروس في الألسنية العامة، (ص ٣٧).

(3) السابق، (ص ١٨٧ – ١٨٨).

(4) دروس في الألسنية العامة، (ص ١٨٧).

(5) السابق ، (ص ١٨٦).

وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حدٍ ما؛ إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعينه سياق النص ، أما المعاني الأخرى فتمحى وتبدد ولا توجد إطلاقًا»[١]، فالسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها ، والسياق أيضًا هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها ، وهو يخلق لها قيمة حضورية[٢] وبذلك كان تركيزه على السياق اللغوي المتمثل في النص ذاته ، ثم أصدر جاكبسون كتابه (أصول اللسانيات العامة) ، وذهب فيه إلى أن للغة وظيفة مرجعية بالنظر إلى السياق[٣]، أما بلومفيلد الذي يذهب إلى أن تحديد المعنى يشكل نقطة الضعف في دراسة اللغة ، وأن الأمر سيظل كذلك ما لم تتقدم معارفنا عما هي عليه الآن[٤]، فقال بأن معنى الصيغة اللغوية هو: «الموقف الذي ينطقها المتكلم فيه ، والاستجابة التي تستدعيها من السامع»[٥] فأتى بفكرة المثير والاستجابة التي تعني أن تحديد المعنى بالمواقف والمقامات ، أو ردود الأفعال التي تتطلب ، أو يتطلبها اللفظ ، ومن ثمَّ فقد أومأ إلى سياق الموقف[٦]، وتعد البداية الحقيقية لنظرية السياق في الغرب متمثلة في جهود مالينوفسكي الذي قال: «الكلام والموقف مرتبطان ببعضهما ارتباطًا لاينفصم ، وسياق الموقف لاغنى عنه؛ لفهم الألفاظ»[٧]؛

(1) اللغة (فندريس) ، (ص ٢٢٨).

(2) السابق، (ص ٢٣١).

(3) دلالة السياق، ردة الطلحي (ص١٧٥).

(4) علم اللغة في القرن العشرين، مونان، (ص ١٢٠).

(5) علم الدلالة، د/ أحمد مختار عمر، (ص ٦١).

(6) دلالة السياق، ردة الطلحي، (ص ١٨).

(7) اللغة ونظرية السياق، د/ علي عزت، (ص ٢٢).

فالكلام المنطوق يكون له معنى فقط لو رأيناه في السياق الذي استخدمه فيه ، واهتم اهتمامًا بالغًا بالوظيفة الاجتماعية للغة ، واستطاع مالينوفسكي بآرائه أن يشغل اللغويين بها ما بين مؤيِّدٍ وناقدٍ ، إلا أن مقولاته حظيت بالقبول لدى فيرث ، الذي طورها ، وجعلها أكثر حضورًا وقيمة في البحث اللغوي[١]. حتى قال أحد أعلام اللغة المعاصرين: «ونحن من جانبنا لا يسعنا إلا أن نتبع هذه المدرسة؛ لأن في مناهجها ما يكفل الوصول إلى نتائج صحيحة خالية من الاضطراب والخلط «.[٢]

ثانيًا: نظرية السياق عند فيرث.

إن نقطة الانطلاق الحقيقية لفيرث تمثلت في الإفادة من جهود مالينوفسكي[٣]، وقدم فيرث نظريته بناء على فهمه المعنى على أنه «علاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي بحيث تتحدد معاني تلك العناصر وفقًا لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة «[٤]، ولعله لخص نظريته في قوله: «الافتراض الأساس أن كل نص يعتبر مكوَّنًا من مكوِّنات سياق ظرف مُعيَّن»[٥]، فدعا إلى دراسة أبعاد الحديث الكلامي من جميع جوانبه ، وقام منهجه في دراسة الخطابات المختلفة من خلال قراءتها في سياقها الحالي والمقامي والثقافي؛ فسياق الحال عنده يشمل تجربة المتكلم والسامع ، وسياق الفعل والصوت ، وأي عنصر آخر يقع في نص الخطاب، والسياق المقامي يظهر من

---

(1) دلالة السياق، د/ ردة الطلحي، (ص ١٨٧).

(2) دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمن، ترجمة د/ محمد كمال بشر، (ص ٢٣) «الهامش».

(3) اللغة ونظرية السياق، د/ علي عزت، (ص ٢٣).

(4) اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، مصطفى لطفي، (ص٣٢).

(5) اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، (ص٢١٥).

العناصر الأخرى مثل: حركات اليدين والوجه وطريقة الجلوس. فالسياق – في رأيه – يمثل المفتاح الذي يفسِّر الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة لدى كلٍّ من منتج الكلام ومتلقيه ضمن الوظيفة التواصلية للغة.[١]

وقد كان التصور الذي وضعه (فيرث) لسياق الموقف عبارة عن إطار منهجي يمكن من وجهة نظره تطبيقه على الأحداث اللغوية.[٢]، وتتكون عناصر النص عنده على النحو التالي:[٣]

١- الصفات المشتركة المتصلة بمن يشتركون في الحديث ممن لهم علاقة بالحدث اللغوي، وهذه الصفات إما:

أ- أحداث لغوية صادرة عنهم.

ب- أحداث غير لغوية.

٢- أشياء خارجية ذات صلة بالحديث.

٣- آثار خارجية ذات صلة بالحديث.

ووصفت نظرية فيرث بأنها نظرية دلالية ناجحة؛ لكنها غير عملية[٤]، ومن ثمَّ كانت عناية فيرث بكافة العناصر اللغوية الداخلية في النص، وتبنَّى فكرة (سياق النص) ، وقدم ما سمَّاه علاقة (الرصف) بين الكلمات ، وهو: «الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة «أو «استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين استعمالها عادة مرتبطتين الواحدة بالأخرى».[٥]

---

(1) الخطاب القرآني. دراسة في العلاقة بين النص والسياق، د/ خلود العموش. (ص٣٠، ٣١).

(2) اللغة ونظرية السياق، د/ علي عزت، (ص٢٣).

(3) دلالة السياق، د/ ردة الطلحي، (ص٥٦٧).

(4) علم الدلالة، بالمر، (ص٧٨).

(5) علم الدلالة، د/ أحمد مختار عمر، (ص٧٤).

وقد طور أولمان نظرية فيرث للسياق بأنه ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل السابقة واللاحقة فحسب ، بل والقطعة كلها والكتاب كله ، كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات»[١] ، وبذلك يصبح السياق «حجر الأساس في علم المعنى»[٢]. وقد قال جون لاينز: «من المستحيل أن تعطي معنى كلمة بدون وضعها في سياق»[٣] ، وركز لاينز في بحوثه على دور الإشارة والضمائر والتعريف والتنكير وعلاقتها بالسياق ، وجعل موافقة السياق فرضية أساسية في نظرية النص والسياق ، يقول: «إن علينا أن لا نعدَّ استقامة النحو مطابقًا لقبول الجملة ، فالجمل جميعها سليمة التركيب نحويًا ، والتركيب الدلالي السليم شرط في القبول ، وكذلك موافقة الجملة للسياق شرط أساسي أيضًا».[٤]

وبذلك تحولت فكرة السياق إلى نظرية سياقية على يد مالينوفسكي وفيرث وأتباعهما من أنصار المدرسة الاجتماعية مثل أولمان ولاينز ، ولكن ذلك لم يمنع من ظهور نظريات لغوية أخرى احتوت المقولات السياقية بشكل أو بآخر.[٥]

ثالثًا: السياق بعد فيرث.

١. تشومسكي والمدرسة التحويلية.

ابتدع تشومسكي نظرية النحو التحويلي ، وكان يهدف إلى الكشف عن قواعد بنى الضمائم للوصول إلى بنية الجملة ، والضميمة هي: الأجزاء المترابطة

---

(1) دور الكلمة في اللغة، أولمان، (ص٥٧).

(2) السابق، (ص٦١).

(3) مفاتيح الألسنية، مونان، (ص١٢٥).

(4) دلالة السياق، ردة الطلحي، (ص٢١٠، ٢١١).

(5) اللغة والمعنى والسياق، جون لا ينز، (ص١٣٣).

صرفيًا ونحويًا ارتباطًا وثيقًا داخل الجملة[١] ، ثم طور نظريته بإدخال عنصر المعنى إليها ، وجعل البنية العميقة تعبِّر عن المعنى[٢] وذلك قاده إلى ما يشبه فكرة الرصف عند فيرث ، فأضحت النظرية التحويلية تخضع صحة الجملة لشقين من معيار المقبولية أحدهما له علاقة بالصحة النحوية والآخر له علاقة بالصحة الدلالية[٣].

٢. أوستين ونظرية أفعال الكلام.

يرى أوستين أن دراسة المعنى يجب أن تبتعد عن التراكيب الجوفاء ، بمعزل عن سياقها؛ لأن اللغة عادة تستخدم داخل سياق الكلام لتأدية كثير من الوظائف»[٤]، ويرى أن دراسة المعنى تكون من خلال الكلام ، وبالنظر إلى الوظيفة الأدائية للكلام؛ أشار إلى أن هناك مجموعة من الوسائل اللغوية يمكن استخدامها للكشف عن أدائية منطوق ما. منها:[٥]

- **صيغة الفعل** ، فالأمر مثلًا قد يكون للوجوب،أو الإباحة ،أو التهديد.
- التشديد على الصوت وإيقاعه وتنغيمه بإمالته وغير ذلك من فنون القراءة.
- الظروف النحوية وما تركب منها تركيبًا إضافيًا ، أو غير إضافي.
- أدوات الربط.
- ما يصاحب التلفظ بالكلمة ، ومستتبعاته.
- ملابسات وأحوال التلفظ بالعبارة.

---

(1) انظر: مدخل إلى علم اللغة الحديث، د/ عبد الفتاح البركاوي، (ص١٣٦- ١٣٧).

(2) النحو العربي والدرس الحديث، د/ عبده الراجحي، (ص١٢٢).

(3) دلالة السياق، د/ ردة الطلحي، (ص٢١٧).

(4) علم اللغة الاجتماعي، هدسون، (ص١٣٣).

(5) انظر: نظرية أفعال الكلام العامة، أوستين، (ص٩٢، ٩٣).

ويظهر في هذه الوسائل السياق بشقيه ، سياق النص ، وسياق الموقف.[١]

ج – اهتمام علماء لغة النص بالسياق.

احتفى علماء النص بالسياق وأشاروا إليه باعتباره قيمة يعتد بها في التعامل مع النص. فهاليداي يرى أن السياق والنص وجهان لعملة واحدة[٢]، وهايمز يرى أن للسياق دورًا مزدوجًا؛ إذ يحصر مجال التأويلات... ويدعم التأويل المقصود.[٣]

وبعد عرض بعض جهود ، وآراء علماء الغرب حول فكرة السياق والمعنى يجدر بنا أن نشير إلى ما يلي:

أولًا: إن نظرية السياق ليست قاصرة على العرب وحدهم ، ولا على غيرهم من أصحاب اللغات الأخرى ، فالسياق عامل مشترك في جميع اللغات ، ولعل في عجز مالينوفسكي عن ترجمة النصوص التي سجلها من إحدى اللغات البدائية المحدودة الانتشار إلى الإنجليزية[٤] دليلًا على ذلك لأنها كما صرَّح هو نفسه يكون لها معنى فقط لو رأيناه في السياق الذي استخدمت فيه[٥]، وكما قال أستاذي د/ أحمد مختار عمر «لم يكن العرب وحدهم هم الذين طبقوا هذه النظرية ، وإنما شاركهم أيضًا العلماء الهنود الذين اهتموا بالسياق ، وعرفوا أثره

---

(1) دلالة السياق، د/ ردة الطلحي، (ص٢٢٨).

(2) علم النص ونظرية الترجمة، د/ يوسف نور عوض، (ص٢٩).

(3) لسانيات النص، د/ محمد خطابي، (ص٥٢).

(4) علم الدلالة، بالمر، (ص٧٤).

(5) علم الدلالة، بالمر، (ص٧٤).

في الكشف عن المعنى[١]؛ ولذا ففكرة السياق عند الغربيين ما هي إلا استمرار لجهود الدرس اللغوي بصفة عامة. فقد سبقهم فيها العرب والهنود[٢].

ثانيًا: إن جهود علماء الغرب في مجال العلاقة بين السياق والنص ، والسياق والمعنى كانت الركيزة التي اعتمد عليها دارسو اللغة من العرب؛ فكان منهم أنصار للمدرسة التحويلية ، والتوليدية ، والاجتماعية ، وحاول آخرون أن يرجعوا بهذه الآراء إلى أسلافنا من علماء العربية سيبويه ، وابن جني ، وغيرهم ، ومن ثمَّ كانت الإشارة البسيطة للإسهامات المعاصرة في مجال السياق والمعنى والنص عند علماء اللغة المعاصرين من العرب.

ب- الإسهامات العربية في الربط بين السياق والمعنى:

منذ أن أسس فيرث (١٨٩٠-١٩٦٠م) نظريته حول السياق، وتتابعت جهود المعاصرين العرب في حمل بذور نظريته وتأصيلها وتطبيقها على الدراسات اللغوية العربية، وإحداث التواصل بين الدرس العربي القديم ونظرية السياق، فمنهم من صرفها إلى المفردات فغلب عليها جانب علم اللغة، ومنهم من صرفها إلى التراكيب فاتجهت للدراسات النحوية وذلك باعتبار التقسيم التخصصي للدراسات الأكاديمية الحديثة، وكان السبق في هذه الدراسات لأساتذتنا الدكتور تمام حسان، والدكتور محمد كمال بشر والدكتور محمود السعران، وتوالت بعدهم الدراسات في مصر وخارجها فظهرت جهود دكتور أحمد مختار عمر، ودكتور محمد حماسة عبد اللطيف، وكذلك الدكتور عبد الفتاح عبد العليم البركاوي صاحب دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث (دراسة تحليلية لوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق)،

---

(1) علم الدلالة، د/ أحمد مختار عمر، (ص١٩).

(2) دلالة السياق، د/ ردة الطلحي، (ص١٦٥).

ودكتور نهاد الموسى، في الأردن، وتولى الباحثون الأفاضل الإشراف على الرسائل العلمية التي تهتم بنظرية السياق على الجانب النظري والتطبيقي ومن هذه الدراسات:

أولًا: السياق وأثره في الدرس اللغوي، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث رسالة دكتوراه إعداد إبراهيم محمود خليل سنة ١٩٩٠م، بالجامعة الأردنية الهاشمية.

ثانيًا: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، رسالة دكتوراه إعداد/ عبد النعِيم عبد السلام خليل، كلية الآداب جامعة الأسكندرية، سنة ١٩٩٨م.

ثالثًا: دلالة السياق، رسالة دكتوراه، إعداد/ ردة الله الطلحي، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى، طبعة، سنة ١٤٢٣هـ.

رابعًا: الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، رسالة دكتوراه إعداد خلود العموش، إشراف د/ نهاد الموسى، بالجامعة الأردنية الهاشمية، وإن كانت هذه الرسائل جميعها تشترك في الاهتمام بالجانب النظري بإفراد مباحث وفصول للسياق عند اللغويين والمفسرين والبلاغيين والأصوليين إلا أن أخراها اتخذت من سورة البقرة جانبًا تطبيقيًّا، وقد رأيت أن أكتفي بالإشارة لتلك الجهود والإحالة على بعض الدراسات بدلًا من الإسهاب والإطالة بالنقل عنها لأنني في مقام التمهيد.

ثالثًا: مفهوم السياق والمعنى في الدراسة:

أولًا: السياق:

لا تقصد الدراسة بمسمى السياق المعنى المستمد من الاستخدام المعجمي له الذي يجعله قرينة من القرائن التي تساعد على فَهْم المعنى كما ذهب إليه أحد

الباحثين الذي عرفه بأنه «مجرى الكلام وتسلسله واتصال بعضه ببعض»[١]، وإنما تقصد السياق بمعناه الشامل الذي يمثل السياق بشقيه عند الدارسين المحدثين المهتمين بقضايا السياق في الدراسات التي تميل إلى جانب النحو واللغة، على اختلاف المسميات لشقيه سواء كانت.

أ- قرائن التعليق المقالية بنوعيها المعنوية واللفظية، والحالية التي تعرف من المقام[٢].

ب- سياق لغوي، وسياق غير لغوي[٣].

ج- سياق النص، وسياق الموقف[٤].

د- السياق اللغوي، والعاطفي، والثقافي، وسياق الموقف[٥].

هـ- السياق اللغوي، والسياق الحالي[٦].

وقد اهتم د/ تمام حسان بالقرائن المقالية وبيانها بشقيها اللفظي والمعنوي[٧].فالقرائن اللفظية هي العلامة الإعرابية، والرتبة، والصيغة، والمطابقة، والربط، والتضام، والأداة، والتنغيم، ويزاد في النص القرآني الوقف والابتداء، والمناسبة أو التناسب بين الألفاظ والمعاني، والاحتكام إلى متشابه النظم ومتشابه المعنى باعتبار القرآن نصًّا واحدًا يفسِّر بعضه بعضًا.

---

(1) الجملة العربية والمعنى، د/ فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، سنة ٢٠٠٠م، (ص٦٣).

(2) آثره د/ تمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها.

(3) آثره د/ محمد حماسة عبد اللطيف في كتابه النحو والدلالة.

(4) آثره د/ ردة الله الطلحي في كتابه دلالة السياق.

(5) تقسيم ارتضاه د/ أحمد مختار عمر في كتابه علم الدلالة.

(6) آثرته د/ خلود العموش في كتاب الخطاب القرآني.

(7) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د/ تمام حسان، ط دار الثقافة المغرب، سنة ١٩٩٤م، من (ص١٩١ إلى ص٢٣١).

فالسياق في دراستنا هو «مجموع القرائن المقالية المستمدة من النص، والمقامية المستمدة من خارج النص التي تعين على بيان المعنى المراد من النص القرآني»، وهذا ما صرح به ابن عاشور بقوله أثناء تفسيره، «وبَيَّنَهُ السياق أو القرائن»[(١)]، فرادف بينهما.

والقرائن المعنوية هي الإسناد، والتعدية، والغائية، والمعية، والظرفية، والتقوية، والملابسة، والتفسير، والإخراج، والنسبة، والتبعية.

أما القرائن المقامية بالنسبة للنص القرآني فأهمها[(٢)].

أ- معرفة أسباب النزول.

ب- معرفة المكي والمدني من الآيات القرآنية.

ج- معرفة زمان نزول الآية باعتبار نزول القرآن منجمًا أي: مفرقًا على ثلاث وعشرين سنة مدة بعثة النبي ﷺ عليه بعد نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا[(٣)].

د- معرفة الناسخ والمنسوخ.

وقد آثر أحد الباحثين[(٤)] تقسيمات أخرى للقرينة وصلت بها إلى عشرة أنواع وإن كان مردها جميعًا إلى الحال والمقال وهي:

---

(1) التحرير والتنوير، (٤/ ٢٦٥).

(2) انظر: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، د/ خلود العموش عالم الكتب الحديث (الأردن ٢٠٠٥م) / ، من (ص٨٢ إلى ص١٠٢).

(3) انظر: مباحث في علوم القرآن، منَّاع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٨٧، (ص١٠١).

(4) انظر: الجملة العربية والمعنى، د/ فاضل السامرائي، من (ص٦٠ إلى ص٦٨).

١- القرينة اللفظية.
٢- القرينة العقلية.
٣- القرينة المعنوية.
٤- القرينة الحالية.
٥- السياق والمقام.
٦- النغمة الصوتية.
٧- القرينة العلمية.
٨- الوقف والابتداء.
٩- قرينة الفهم العام لأهل اللغة.
١٠- القرينة الحسية.

فالخلاصة أن ما نهدف إليه هو معرفة مدى اعتماد الطاهر ابن عاشور في تفسيره على هذه القرائن في توجيهاته واختياراته من خلال فصول الدراسة النحوية والدلالية ومن هنا ننتقل إلى بيان المراد بالمعنى.

ثانيًا: المعنى:

المعنى هو مراد المتكلم ومقصده من الكلام، وفي القرآن هو بيان مراد الله ﷻ من النص القرآني، وبالطبع نحن لا نهدف إلى تحليل النص القرآني كاملًا، وإنما نهدف إلى بيان المعنى المراد في الدراسة النحوية والدلالية محل البحث ففي الدراسة النحوية نعني أثر السياق في توجيه الإعراب وبيان الرتبة، وإثبات الحذف مع بيان المقدر. وفي الدراسة الدلالية نهدف إلى بيان أثر السياق في بيان معاني الأدوات ومرجع الضمير والإشارة، وإن كانت الدراسة كلها تنتمي إلى النحو إلا أن هذا التقسيم مبنيّ باعتبار الغالب فالدراسة النحوية تهتم بالإعراب والدراسة الدلالية تهتم ببيان المعنى.